البشريّة يعيش عيشةَ الكلاب؟ وواقع الأمر أنّ هذا التشبيه ليس صحيحًا تمامًا، لأنّ الكلاب في الولايات المتحدة تَحْظى عادةً باهتمامٍ ورعايةٍ يَفُوقان ما حَظِي به نصفُ مليون طفل عراقيّ (أو نحو ذلك) ماتوا نتيجةً للعقوبات الأميركيّة!

ليس ثمّة من جوابٍ سهلٍ عمّا جرى يومَ الثلاثاء. حين فُجِّر أوّلُ جهازٍ نوويّ كان آينشتاين هو مَنْ قال ـ إنْ لم أكن مخطئًا ـ إنّ كلّ شيء قد تغيَّر إلاّ طريقة تفكير الإنسان. أخشى أن يكون هذا هو الخطرَ الأعظمَ الذي يواجههنا اليوم. إنّ ردّ واشنطن على ما حدَثَ سيكون على الأرجح المزيدَ من أفعالها السابقة: ضرباتٍ انتقاميّةً ذاتَ حجمٍ بالغِ التدمير؛ وإجراءاتٍ أمنيّةً جديدةً على المستوى المحليّ تَقْرُض جزءًا أكبرَ من حريّاتنا الأساسيّة. وحتى لو وَضَعْنا جانبًا اهتماماتنا الأخلاقيّةَ والمدنيّةَ المناديةَ بالحريّة المطلقة، أثمّة في هذه القاعة مَنْ يصدِّق حقًّا أنّ كلّ تلك الضربات والإجراءات ستُوقِف الهجماتِ الإرهابيّة؟

إنّ الأمل الوحيد المتبقّي لدينا، بعد أهوال الثلاثاء الماضي، هو أن تتغيَّر طريقةُ تفكيرنا أيضًا.

شيكاغو

لنَكُنْ واضحين تمامًا. نحن لا نشاطِرُ رأيَ مادلين أولبرايت [وزيرة الخارجيّة الأميركيّة السابقة] حين سُئلتْ ما إذا كان استمرارُ الحصار على العراق يستحقّ أن يموتَ في سبيله نصفُ مليون عراقيّ فأجابت: «إنّه لخيارٌ قاسٍ جدّاً، ولكنّنا نَعْتقد أنّ الأمر يستحقّ ذلك.» فنحن نرى أنّ قتلَ مدنيّين أبرياء ليس مقبولاً في أيّ وقتٍ من الأوقات. ولكنّ ذلك لا يَعْني ألاّ يكون علينا أن نحاول أن نَفْهم المغزى الضمنيّ لذلك الهجوم الذي لا يُصدَّق.

لقد لاحظ داعيةُ السلام الأميركيّ أ.ج. ماست ذات يوم أنّ الرابح في كلّ حرب هو الذي يَطْرح المشكلة: فالمُنْتصِر قد تَعَلَّمَ أنّ العنفَ يَنْجح في تحقيق أهدافه. ويبيِّن تاريخُ ما بعد الحرب العالميّة الثانية بأكمله شدّةَ ارتباط هذه الملاحظة بموضوعنا. ففي الولايات المتحدة أُعيدت تسميةُ «وزارة الحرب» وزارةً «للدفاع،» تحديدًا حيث لم يكن ثمة خطرٌ مباشرٌ يهدِّد البلادَ. وشنَّت الحكومةُ تلو الحكومة حملاتِ تدخُّلٍ عسكريّ وزعزعةٍ سياسيّةٍ تحت غطاء «احتواء الشيوعيّة» طالت حكوماتٍ ذاتَ توجُّهاتٍ وطنيّةٍ معتدلة أمثال حكومةِ غولارت في البرازيل أو حكومةِ مصدّق في إيران أو حكومةِ آربنز في غواتيمالا. وحصرًا للموضوع بالزمن الحاضر، دعونا نتأمّلْ بضعَ أسئلة قلّما تُطرح في ما يخصّ السياسةَ الغربيّة، ولاسيّما الأميركيّة.

ـ بروتوكول كيوتو: اعتراضُ الولايات المتحدة الرئيسيّ عليه لا يَسْتند إلى أرضيّة علْميّة، بل حَسْبُه أنّه «سَيِّئٌ لاقتصادنا.» فماذا تُراه يَسْتَنْتج مِنْ ردّة الفعل هذه أناسٌ يَعْملون ١٢ ساعةً في اليوم لقاء أجرٍ هو أجرُ العبيد؟!

ـ مؤتمر دوربان: الغرب يَرْفض أدنى تفكير في تقديم تعويضات لضحايا العبوديّة والاستعمار. ولكنْ أليْس واضحًا أنّ دولة إسرائيل تمثِّل شكلاً من أشكال التعويض الغربيّ عن حملات الاضطهاد المعادية للساميّة، سوى أنّ مَنْ يَدْفع ثمنَ الجرائم التي ارتكبها الأوروبيُّون إنّما هم الفلسطينيُّون العرب؟ أوَلَيس بيِّنًا أنّ إزاحةَ المسؤوليّة هنا لا بدّ أن يَعُدّها ضحايا الاستعمار شكلاً من أشكال العنصريّة؟

ـ مقدونيا: هذا بلد دَفَعه الغربُ إلى الاستقلال من أجل إضعاف صربيا، وحكومتُه ما فتئتْ تَتَّبع الأوامرَ الغربيّةَ بإخلاص. ونتيجةً لذلك تعرَّض لهجماتٍ نفّذها إرهابيُّون سلّحهم الناتو وجاءوا من أراضٍ تَخْضع لسيطرة هذا الحلف. فكيف ستَنْظر الشعوبُ الأورثوذكسيّةُ السلافيّةُ إلى هذا الأمر، وبخاصةٍ بعد تهجير السكّان الصرب من كوسوفو ـ على مرأًى من الناتو ـ وبعد اجتثاثِ قسمٍ كبيرٍ من إرثهم الثقافيّ؟

ـ أفغانستان: لقد تُنوسي بسرعةٍ أنّ أسامة بن لادن كان قد دُرِّب وسُلِّح من طرف الأميركان، الذين يَجْهرون بالاعتراف بأنّهم كانوا يَسْتخدمون أفغانستان لزعزعة الاتّحاد السوفياتيّ حتى قبل غزو

نهاية «نهاية التاريخ»*

جان بريكمون

كل شيء كان يسير على ما يرام. فصربيا، الساجدةُ على ركبتيْها، أرْسلتْ للتوّ ميلوسوفيتش إلى محكمة الجزاء الدوليّة لقاءَ حفنةٍ من الدولارات (اتّضحَ أنّ أكثرَها مخصَّصٌ لدفع الديون التي تعود إلى أيّام حُكْم المارشال تيتو). حلفُ الناتو يتوسَّع شرقًا، باتّجاه روسيا التي لا حول لها ولا قوّة. صدّام حسين يَسْهل قصفُه متى شاء المرءُ ذلك. مقدونيا اضطُرّتْ، بعد أن غَزَتْها كوسوفو، إلى قبول مهزلةِ نَزْع سلاح الكوسوفيِّين على يدِ مَنْ كان قد زَوَّدهم به أصلاً. المناطق الفلسطينيّة المحتلّة تحت سيطرةٍ إسرائيليّةٍ شديدة، فيما تَغْتالُ قادَتَهم قنابلُ «ذكيّة.» مالِكُو الأسهم ما فَتِئوا طوال الأعوام السابقة القليلة يسجِّلون أرباحًا قياسيّة. اليسار السياسيّ انقرض، وكلُّ الأحزاب السياسيّة تسابقتْ نحو الليبراليّة الجديدة ونزعةِ التدخُّل «الإنسانيّ.» وبكلمة، على ما عَبَّرَ بعضُ المعلِّقين، كنّا نَنْعم بالسلام.

وفجأةً وقعت الصدمةُ والدهشةُ والرعب: فأعظمُ قوّة عَبْر كلّ حقب التاريخ، والإمبراطوريّةُ الكونيّةُ الوحيدةُ بحقّ، تُضْرَبُ في صميمها، في مركزِ ثرائها وقوّتها. وأمّا شبكةُ التجسُّس الإلكترونيّة الفريدة القهّارة، وأمّا التدابيرُ الأمنيّةُ التي لا توازيها أيُّ تدابير، وأمّا ميزانيّةُ الدفاع المذْهلة ـ فكلُّها لم تَنْفع في تجنُّب الكارثة.

* ـ مقال نُشر في موقع «زي نت.» وبريكمون أستاذ الفيزياء النظريّة في جامعة لوڤان في بلجيكا.

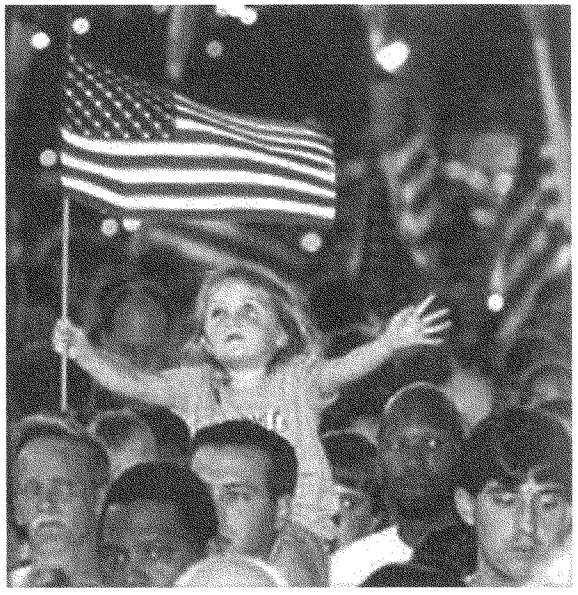

سيسارع الجمهور الأميركيّ إلى الالتفاف من حول العلم داعمًا حكومتَه أيّاً كانت بربريّة سياستها

هذا الأخير ذلك البلدَ. كم شخصًا مات في تلك اللُّعبة التي دعاها زبيغنيو بريزنسكي، مستشارُ الرئيس الأميركيّ الأسبق جيمي كارتر، «رقعةَ الشطرنج العظيمة؟» وكم إرهابيّاً في آسيا، أو في أميركا الوسطى، أو في البلقان، أو في الشرق الأوسط تُركوا ليَعْدُوا مُنْفلتي السّراح بعد أن استخدمهم «العالَمُ الحُرّ؟»

ـ العراق: عشر سنوات وشعبُ هذا البلد يَخْتنق نتيجةً لحصارٍ سَبَّبَ مئاتِ آلاف القتلى من المدنيِّين. وكلُّ هذا لأنَّ العراق حاول أن يستعيد ما اعتبره آبارَ نفطه التي كان البريطانيُّون قد صادروها منه بقوّة الأمر الواقع. فلنقارنْ ذلك فقط بالمعاملة التي حظيتْ بها إسرائيلُ بعد احتلالها المناقِضِ للشرعيّة الدوليّة مناقضةً تامّةً عام ١٩٦٧. أَمِنَ المحتمل حقّاً أن يتفهَّم العالَمُ العربيُّ الإسلاميُّ المقولةَ التي يَقْبلها الغربُ إجمالاً، ومؤدّاها أنَّ على صدّام حسين أن يُلام على كلّ شيء؟

وتشاء الصُّدفُ وحدها أن توافِقَ عمليّاتُ ١١ أيلول (سبتمبر) في الولايات المتحدة ذكرى الإطاحة بـ «اليندي» ـ وهي الذكرى التي لا تؤشِّر فقط على تَنْصيب الحكومة «النيوليبراليّة» الأولى، أيْ تلك التي ترأّسها الجنرال بينوشيه (وهذه حقيقةٌ يتمّ تناسيها بسهولة)، بل تؤشِّر أيضًا على بداية تحرُّكٍ واسعٍ ضدّ الحركات القوميّة والاستقلاليّة في العالم الثالث، وهو تحرُّكٌ قاد بلدانَ هذا العالم إلى الانحناء أمام إملاءات صندوق النقد الدوليّ.

تلكم هي الأسبابُ التي تَدْفعنا إلى أن نشكّ في أنَّ مأساة ١١ أيلول ستؤدّي بشعوب أميركا اللاتينيّة، وأندونيسيا، وإيران، وروسيا المدمَّرةِ والمُهانةِ، والصينِ التي لا تَخْدع أحدًا محاولاتُ زعزعة العملاق الناهض، والعالمِ الإسلاميِّ أيضًا، إلى ذرفِ ما هو أكثرُ من دموعٍ تماسيح!

بالطبع ستكون هناك صيحاتُ سخطٍ ورسائلُ تعاطف. وسيكون ثمّة تأييدٌ للقيام بـ «ردودٍ حازمة» حين تَحْصل (أسيدمِّر العدوانُ القادمُ مصْنعًا للأدوية في السودان، أو يَقْصفُ شعبًا أعزلَ في بلدٍ عربيّ آخر؟). وسيَطّلع عددٌ كبير من المثقفين بتحليلات ذكيّةٍ مليئةٍ بالتشبيهات الخاطئة التي تَرْبط هذه الاعتداءاتِ بمن يعادونه وبما يُعادُونه: بصدّام حسين، أو بالقذّافي، أو بدعاة السلام ومعادي الإمبرياليّة، أو بحركة التحرُّر الفلسطينيّة، بل بالصين أو روسيا أو كوريا الشماليّة أيضًا. وستتكرَّر المزاعمُ بأنَّ بربريّةً كالتي حدثتْ في نيويورك وواشنطن غريبةٌ تمامًا عنّا: فنحن، في النهاية، نفضّل أن نَقْصف من عَلٍ، ونفضّل أن نَقْتل تدريجًا بواسطة الحصارات! ولكنّ أيّاً من ذلك كلّه لن يَحلَّ أيَّ مشكلةٍ أساسيّةٍ. فليس هناك من فائدةٍ تُرجى من التصدّي للعصيان نفسه. بل إنَّ ما يجب أن يتمّ التصدّي له هو **المعاناة** التي تُسبِّب العصيانَ. ذلك لأنَّ التصدّي للعصيان لا للمعاناة سيؤدّي إلى نتيجتَيْن سياسيّتَيْن سلبيّتَيْن على الأقلّ. فالجمهور الأميركيّ، أولاً، وهو جمهورٌ غارقٌ في المشاعر القوميّة [الضيِّقة] على نحوٍ مقلق، «سيسارع إلى الالتفاف من حول العَلَم» (كما يقولون) داعمًا حكومتَه أيّاً كانت بربريّةُ سياساتها. وسيكون الأميركيُّون أشدَّ عزمًا من أيّ زمن مضى على «حماية طريقة عيشنا،» دون أن يَسْألوا عن الثمن الذي ستَدْفعه بقيّةُ البشر على هذا الكوكب. وستهمَّش الحركاتُ الخجولةُ [المناهِضةُ للعولمة] التي انبثقتْ بعد سياتل، إنْ لم تُجرَّم.

وفي المقابل، سيُزَيَّن للملايين ممَّن هَزَمتهم الولاياتُ المتحدة وأذلَّتْهم وسَحَقَتْهم، هي والعالَمُ الذي تهيمِنُ عليه، أنْ يَرَوْا إلى الإرهاب سلاحًا أَوْحَدَ قادرًا حقّاً على ضرب الإمبراطوريّة الأميركيّة. ولهذا فإنَّ نضالاً سياسيّاً حقيقيّاً ـ لا عنفًا ـ ضدّ الهيمنة التي تمارسها ثقافيّاً واقتصاديّاً، وعسكريّاً قبل كل شيء آخر، أقليّةٌ ضئيلةٌ على الغالبيّة الساحقة من البشر، إنّما هو أمرٌ أكثرُ ضرورةً من أيّ زمن مضى.

بلجيكا